



البذخ !!!

د. وجدان التيجاني الصديق عباس
جامعة نايف العربية للعلوم الامنية

تلقيت دعوة قبل بضعة أسابيع من إحدى صديقاتي لحضور حفل زفاف ابنتها الوحيدة، وتحت إصرار صديقتي بضرورة الحضور وإعلانها اعتزامها مقاطعة كل من لا يشاركها فرحتها بهذا اليوم الذي طالما تمنته لوحيدتها؛ ورغبة مني كذلك في رؤية صديقات حالت مشاغل الدنيا دون التواصل معهن أو رؤيتهن فقد قررت الذهاب خاصة وقد طال عهدي بمناسبات الزواج في ربوع الوطن، يحدوني كذلك لتلبية الدعوة فضول الباحث الاجتماعي لمتابعة حجم التغيرات في الطقوس والممارسات الاجتماعية، وعلى الرغم من معرفتي بمستويات الانفاق العالية والبذخ الذي لا حدود له في مثل هذه المناسبات؛ إلا أن ما رأيته من إسراف وبذخ فاق حدود توقعاتي وأصابني بالدهشة.



مَالَهُ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ» (رواه الترمذي)

وتساءلت في قرارة نفسي عن حجم المشكلات الاجتماعية التي يمكن أن يحلها هذا المبلغ الذي أنفق في ليلة واحدة ولساعات محدودة، كم جائع يمكن أن يشبعه هذا الطعام بدلاً عن أن يلقي به في مكب النفايات في آخر الأمر، وكم من أيم يمكن أن يزوج بهذا المبلغ الذي أنفق على زيجة واحدة، وكم من بيت يمكن أن يعمر، ودواء يشتري وكساء يقدم وديون تقضى وأرواح تتقذ.

ليس ذلك فحسب وإنما رحت أتساءل وأنا أقلب وجهي بين الحضور عن حجم المشكلات الاجتماعية التي يمكن أن يثيرها هذا الإنفاق البذخي في مثل هذه المناسبة، وكأني أرى بين الحضور من الفتيات أو الأمهات من التمنيات بالأل يقل مستوى زواجها أو زواج ابنتها عن هذا الزواج، فتجدها بعد ذلك ترفع من سقف الطلبات التي تثقل من كاهل العريس وتتمسك بمطلبها على أساس أن هناك من يستطيع تلبية مثل هذه الطلبات وأنها أو ابنتها ليست أقل شأنًا ولا مكانة من هذه العروس ليقبل تقديرها وحظها في زيجتها، ونكون بذلك قد أوجدنا مجالًا واسعًا للمقارنات غير المنصفة وأثقلنا كواهل الشباب المقبلين على الزواج بتكاليف لا قبل لهم بها ولن تفيدهم بشيء في مقبل حياتهم الزوجية سوى مواكبة التفاخر الاجتماعي والذي هو في حقيقته لايسمن ولا يغني من جوع، وكم من خاطب رفض لمستواه الاقتصادي الذي لن يستطيع أن يكسب به سياق التباهي والتفاخر، ذلك الذي بات ملزمًا في مجتمعاتنا، ثم نعود ونتساءل بعدها عن أسباب عزوف شبابتنا عن الزواج، ولماذا ارتفعت معدلات العنوسة بين ظهرانينا؟ ولماذا أصبح أبناءنا مقبلين على الزواج من الأجنيبات؟! والإجابة ببساطة لأن الزيجات الأخرى لا تكلفهم ربع ما يكلفه زواجهم من بنات جلدتهم وفقاً للعادات والتقاليد.

ليس ذلك فحسب بل كأني أرى نظرات التحسر في نفوس بعض الحاضرات على حظهن العاثر الذي لم يجعلهن سليلات الأسر ذات المال والمكانة، أو لم يوقعهن في مثل هذا الزوج الغني ليحظين بمثل هذا الزواج. ولعل هذا أحد الأسباب الذي بات يدفع الكثير من الفتيات على الإقدام على قبول زواج غير متكافئ بدافع المال والحصول على مثل هذه الليالي الأسطورية إن صحت التسمية. والخشية كل الخشية من أن يتحول الزواج بمثل هذه الممارسات التفاخرية إلى منظومة طبقية لا يستطيعها إلا من يملك المال، وليس الدين والخلق كما هو المعيار الشرعي التفضيلي للزواج استناداً إلى توجيه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه» (أخرجه الترمذي ،

بدءاً من مكان الاحتفال وفخامته وما حواه من تأثيث وديكورات وإضاءة مروراً بأصناف الطعام المتنوعة وكمياته المهولة والتي للأسف ما أكل المدعوون على كثرتهم نصفها، وانتهاءً بفستان العروس وزينتها وقيمة المجوهرات التي ترتديها، وأنها تقص عليّ بفخر واعتزاز مقدار المبلغ الذي أنفق في هذا الزواج، وعندما لمتها على ضخامة المبلغ المنفق وأنه يعتبر إسرافاً لا لزوم له بادرتي بمبرراتها حيث تود أن تفرح بابنتها الوحيدة وأنها تحلم بهذا اليوم وتعد له العدة منذ أن كانت وحيدتها طفلة صغيرة، فكيف لا تفرح بها اليوم ولا تبخل عليها في تحقيق هذه الفرحة بشيء؛ خاصة وأن الله قد أعطاها هي وزوجها من فضله ووسع عليهما؟ ورمقتني بنظرة استنكار لفحوى حديثي معها فلزمت الصمت وأثرت تأجيل النقاش معها لوقت لاحق، ولم أملك في تلك اللحظة إلا أن أتذكر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ لِنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (سورة التكويد، الآية: ٨) وقول رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْتَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ وَعَنْ





(وابن ماجه)

كما أن مثل هذا الانفاق البذخي التفاخري يتسبب في العديد من المشكلات الاجتماعية فهو إما يثير حفيظة النفوس التي لا تستطيعه، فيورثها غبنا اجتماعيا قد يتسبب في ما لا تحمد عقباه من الضغائن والأحقاد التي قد تقود إلى العنف والانحرافات، وقد أشارت العديد من الدراسات إلى كثير من سلبيات هذه الليالي الأسطورية التي أصبحت المعيار للممارسة الاحتفالية في مثل هذه المناسبات والمقياس للقبول والرضا الاجتماعي؛ فيجبر الذين لا يستطيعون لها طاقة على الاتيان بمثلها ولو كان ذلك على حساب أصول ممتلكاتهم وتحملهم لأرتال من الديون قد تنتهي بهم إلى الملاحقات القضائية، وكم سمعنا عن أب باع منزله ليزوج ابنة أو ابنته، وكم من عرسان غرقوا في عبء الديون التي ألقوا بظلالها السوداء على بدايات حياتهم الزوجية فأفسدتها، وقد أجبرت هذه الممارسات الاجتماعية البذخية شرائح واسعة في المجتمع على التقليد الاجتماعي الأعمى الذي ما عاد ينفع على أحد من الأطراف سوى هدر لرؤوس أموال لو أنها استثمرت في مجالات أخرى لعادت بالنفع على العروسين وذويهم وكافة المجتمع.

وأذكر أن إحدى طالباتي المتميزات جاءت تدعوني لعقد قرانها

معتذرة بكبرياء وسعادة مشوبة بالانتصار أن القران يقتصر على حفل بسيط في منزلها خاص بالأهل والمقربين علماً بأنها ابنة أسرة ميسورة الحال ومشهورة ولها شأن في المجتمع، وتبرر لذلك بأنها رأت وخطيبها أن يستثمرا أموال تكلفة الزواج من صاللة وعشاء فاخر وملابس و حفل تفاخري بهيج وشهر عسل أوربي في تأسيس مشروعهما الاستثماري الخاص ليبدأ حياتهما على أسس مالية قوية دون ديون أو مساعدة من أحد، ولكن أعجبت حينها بعقليتها العملية وشجاعتها الاجتماعية في رفض مثل هذه الممارسات المجتمعية التي لا تعود بالنفع بل وتسبب الضرر، غير أنها كانت تقص علي حجم الهجوم والانتقادات التي واجهتها وخطيبها من أسرتهما والمقربين، حتى باتوا محط سخرية المجالس الاجتماعية ممن حولهم، وأكثر ما أدهشني وأعجبني فيها أنها كانت تبسّم وهي تقص علي تفاصيل ما تعرضت له من هجوم حتى من أقرب الناس لها فأماها غاضبة من موقف ابنتها الذي وصفته بأنه تقليل لمستوى العائلة أمام الناس، وكانت هذه العائلة لا تمتلك مالا تنفقه على زواج ابنتها، وعندما سألتها عن سر قوتها وعدم تأثرها بمواقف من حولها أجابتني ببساطة أنا وزوجي نريد أن نبدأ حياتنا على بركة من





ينبغي الاعتدال في الانفاق التزاماً بمبدأ عدم الضرر المادي والنفسي للفرد والجماعة

ومن هول ما يصاحبها من انفاق بذخي على استضافة وإطعام المعزين من أقارب وأصدقاء وجيران لأيام قد تصل في بعض المجتمعات لأسابيع، حتى يكاد يتحقق فيها المثل المشهور: (ميتة وخراب ديار).

لذا تجدنا أحوج ما نكون اليوم في مجتمعاتنا لنهج الاعتدال في الانفاق في مناسباتنا الاجتماعية كلها السعيدة والحزينة، التزاماً بمبدأ عدم الضرر المادي والنفسي للأفراد والجماعة والمجتمع.

ولو أدركنا حجم الأمراض والمشكلات الاجتماعية التي تتسبب فيها أو تساهم في ترسيخها مثل هذه الممارسات البذخية لتمثلنا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان، ٦٧).

اللَّهُ وتوفيقه وليس على بذخ وترف يزيل النعم، يكبلنا بديون من أجل أن نتفاخر ونتباهى أمام الناس لساعات معدودة ينفذوا بعدها ويتركوننا نتحمل وزر ذلك أمداً بعيداً.

وعلى الرغم من بساطة الرد ومنطقية الفكرة ووضوحها إلا أن تنفيذها يتطلب في هذا الزمان قوة في الاقتناع وصلابة في الثبات على المبدأ عجز عنها الكثيرون بحجة أن هذه هي الممارسات السائدة وهذا هو العرف فماذا نصنع!

لا شك في أن العديد من الممارسين لظاهرة الانفاق البذخي في المناسبات متضرر منها وربما متأفف، لكنه يمارسها باعتبارها العرف السائد أو المتعارف عليه الذي لا يستطيع له رفضاً والافتقار القبول الاجتماعي، وما أدرك هؤلاء أن الكثير من الممارسات والعادات الاجتماعية خضعت طقوسها للتغيير والتبديل وفق الممكن والمتاح ومتغيرات الأوضاع والظروف، وإننا نحن الذين نصنع هذه الممارسات الاجتماعية ونحن القادرون على محاربتها وتغييرها.

هذا والحديث عن الانفاق البذخي في الزواج وما شابهه من المناسبات الاجتماعية السعيدة يهون أمام الحديث عن الأتراح وما يصنع فيها من ممارسات بذخية فالأمر طامة أخرى،